علي حرب وأنا

بلينا في السنوات الأخيرة بقضية جد خطيرة، وهي تضخم الذات ومركزيتها، ومن هذا المنطلق فإن القول بحرية الفكر وحرية الدال والمرجعية الذاتية للمصداقية والصدق، أصبحت شبه حتمية اجتماعية ثقافية. فصار من المقبول جدا أن يزعم المرء أن ما يقوله لا يخضع لأي معيار خارج الذات وإنما يستمد مشروعيته أو مصداقيته من طيات فكره الذاتي. ومما زاد الطين بله أن مصداقية مثل هذه الأمور الذاتية بدأت تدعي اعتمادها على ما يعرف بالتفكيك أو التقويض، بغض النظر عما إذا كان التفكيك يبيح مثل هذه الطروحات أم لا يبيحها. من هذا المنطلق جاء رد علي حرب حول بعض الملاحظات التي أبديتها في مقابلة اجرتها معي جريدة الرياض. ويبدو أنني في جريدة الرياض قد أخرجت الحكيم عن طوره والشيخ عن وقاره، فجاء رده عنيفا متألما. ولعلني قد نكأت جراحا عن غير قصد لأن الكتابة عموما تتسم بالعنف كيفما جاءت.

فقد كتب علي حرب في مجلة اليمامة يقول أنه: «ليس مجرد متلق ساذج ولا مجرد قارئ سلبي» للفكر المعاصر الغربي خاصة فكر التفكيك الذي يتزعمه جاك دريدا وميشيل فوكو ورولان بارت وجيل دولوز. وأقول بدوري: «نعم»، علي حرب ليس متلق ساذج ولا مجرد قارئ سلبي ليس لأن عنده ما يقوله وإنما لأنه يُحرّف ويُحوّر وينسخ كلام الغير ويدعيه لنفسه، ويظن أنه بمجرد أن يكتب كلام الغير يصبح هذا الكلام له ونتاجا لمصنعه الكيميائي ولمعمل ذهبه.

أما الآخرون، خاصة من ينتقدونه أو منهم على «شاكلتي»، فإنهم «يتصورون أن فكر دريدا أو فوكو هو عبارة عن صور أو مُثُل هي جواهر متعالية تقوم بذاتها بمعزل عن تشكلات الخطاب ووقائع الكلام، أو تُعرف بذاتها كما هي بصرف النظر عما تخضع له من التفاسير والتأويلات من قبل القراء والنقاد. هكذا فهم يجردون الفكر من مادته ويسلخون المفاهيم عن أرضها وجسدها، كما يغفلون عن كون النص هو في النهاية علاقته بقرائه ...».

هذا ما يقوله علي حرب عن المثقفين العرب أمثال حسن حنفي ومحمد عابد الجابري وصادق جلال العظم والصادق النيهوم ومحمد عمارة ونصر حامد ابو زيد وآخرين غيرهم، ويضعني في مصاف هذه النخبة المتميزة. وبقدر ما يسعدني أن أكون من طبقتهم، إلا أن هذا الوضع شرف لا أجرؤ على ادعائه. لكن شأني حسب رأي علي حرب شأنهم في أن الجميع «لا يفقهون معنى ما حدث فكريا بعد نقد الحداثة. إنهم يتكلمون على ما لا يفقهون».

هل نصدق علي حرب لأنه علي حرب أم أن لديه دليلا يقدمه؟ علي حرب لم يقدم دليلا واحدا لا على من يتهمهم بعدم الفهم ولا على صدق مقولاته فيما يزعم أن أهل التفكيك يتبنونه. فهو في كتابه الذي انتقد فيه العظم يقول إنه لم يقتبس من كلام العظم حرفا واحدا، وإذا احتج أحد على هذا التعسف فإن علي حرب يخبره أن هذا

منهجه الذي فيه ينهج منهج أهل التفكيك. هل يكفي هذا الزعم دون أن يقول علي حرب ماذا قال أهل التفكيك؟ نحن نعرف أن أهل التفكيك يشبعون النص اقتباسا ومحاورة وتقصيا ولم يفعل أي منهم ما يفعله علي حرب. وقد سبق أن طلبت من علي حرب نصا واحدا فقط يثبت ما يذهب إليه في أي من مغالطاته. لكن علي حرب يرى نفسه منبعا للحقيقة ومركزا للحق، وأن ما يقوله يجب أن يؤخذ على أنه مسلمة واقعة بدهية.

أما قوله أنني ومن على «شاكلتي» نتصور أن «فكر دريدا أو فوكو هو عبارة عن صور أو مُثُل هي جواهر متعالية تقوم بذاتها بمعزل عن تشكلات الخطاب ...» فهي مقولة أشرت أنا شخصيا إليها لكنه أضاف إليها معمله الكيميائي وبعض الجواهر (والعلاقة بين الكيمياء والذهب علاقة تاريخية على كل حال). فقد سبق أن قلت حرفيا عام 1994: «لا أعرف في حقيقة الأمر أحدا من التقويضيين يستطيع أن يصادر مصادرات علي حرب دون أن تأتي هذه المصادرات نتيجة اشباع النص اقتباسا يصل إلى حد اقتباس كامل النص المدروس كما فعل دريدا بنص جون سيرل أو فعل بارت بقصة راسين أو (بدرجة أقل) جيل دولوز في تعامله مع نصوص فوكو»، كما قلت: «لم يكن التفكيك مذهبا يذهبه المرء، ولم يقل التفكيكي دريدا إن بالامكان تعيين مصطلحات التفكيك ومفاهيمه كالاختلاف والاضافة أو الملحق وكالفارماكون والعلامة والمحاكاة والأثر. فهذه بينما تخلق وتهدم المفاهيم الميتافيزيقية لا تشكل بذاتها حدا ثالثا وإنما تأتي نتيجة للخطاب الذي تعيش وتستقر فيه لتحدد الأضداد التي بدورها تحدد هذه المفاهيم. أما علي حرب فجعل من هذه النتائج التي لا تشكل حدا ثالثا جعل منها مفاهيما كاملة وقيما قمعية...» (***النص الجديد***، العدد 2، ص: 116-117). وفي المقابلة التي يحيل إليها علي حرب قلت أيضا إن علي حرب «يطلق تصريحات تفكيكية توصل إليها أصحابها نتيجة جهد مضن» بعد أن يكونوا قد عالجوا النص وأشبعوه اقتباسا وتقصيا.

لكن علي حرب رغم أنه يقول إن المثقفين العرب يحاولون سلخ المفاهيم عن مادتها وجسدها نجده هو الذي يسلخها ويلوح بها حتى لا يعترض عليه أحد. ولكي لا نكون مثل علي حرب ومن هم على شاكلته، دعنا على الأقل نقتطف ما يقوله هو نفسه ملوحا بأسماء ومفاهيم التفكيكيين. يقول علي حرب نفسه: «رب معترض عليّ يقول أنك في نقدك العظم لم تستشهد بعبارة واحدة تستقيها من حواره الطويل، لكي تدعم بها رأيك وتعزز وجهة نظرك ...»، فيجيب علي حرب نفسه على اعتراض هو نفسه يشعر به ويسوقه، فيقول: «هذه هي طريقتي في التعامل مع النص. فأنا لا أُعنى بما ينطق به الخطاب بقدر ما أُعنى بما يسكت عنه ويحجبه من بداهات ومصادرات. فالنص عندي ... له ألف سطح وسطح على حد تعبير جيل دولوز، ويتشكل من ترميم نصوص أخرى لا تحصى كما يرى جاك دريدا». إن المشكلة لا تنحصر في أن علي حرب لا يستشهد بعبارة واحدة من خطاب العظم، وإنما أيضا في أنه لا يقول أين قال دولوز أو دريدا مقولاتهم. ولا يرى بأسا في أن مجرد ذكر دريدا ودولوز لا يصحح الوضع، كما أنه لا يرى هذا سلخا

لمقولات هؤلاء عن خطابها الذي أفرزها. أما غيره، رغم الاقتباسات ومعالجة القضية ضمن حيز خطابها الذي أفرزها والتوثيق الأكيد، فهم يسلخون المقولات عن ارضها وجسدها. كيف يحصل ذلك؟ عند علي حرب وحده الجواب! وإذا قال علي حرب قولا فصدقوه لسبب بسيط، وهو أنه مفكر كبير جدير بلقبه. وعلينا في هذه الفسحة الصغيرة أن نعالج قضية المفكر الكبير من خلال قضية الصدق الذي لا يدعمه إلا توسع حجم المفكر المنقذ.

وأول قضايا الصدق هي ما استهلك الحيز الأكبر في رد علي حرب على مقابلتي في الرياض، وهي قضية النسخ والتحوير. فمن يقرأ رد علي حرب يظن أنني فعلا قد قلت أن علي حرب نسخ مقولات التفكيكيين، وهذا بهتان أكيد. فقد قلت أن علي حرب نفسه، بوصفه مفكرا كبيرا لا تحده حدود كما يصف نفسه، **يقول**: «ان مبرر كل مفكر جدير بلقبه ان يمارس التفكير بطريقة مغايرة للذين سبقوه، إذا لم يشأ أن يكون مجرد شارح مبسط أو تابع مقلد، أو حارس مدافع عن العقيدة والحقيقة. والتفكير بصورة مغايرة، يعني ان نبدل وننسخ، أو نحرف ونحور، أو نزحزح ونقلب، أو ننقب ونكشف، أو نحفر ونفكك، أو نرمم ونطعم، أو نفسر ونؤول...» (1:133). وكان تعليقي على اعترافه هذا أنه اقتصر على النسخ والتحريف والتحوير ولم يصل إلى مرحلة الزحزحة والقلب والتنقيب والكشف والحفر والتفكيك لأنه ببساطة ألغى تماما الحيز الذي قد يساعده على تحقيق مثل هذه الطموحات، أي ألغى النص وادعى أن التقويضيين لا يلتفتون إلى النص. كما قلت أنه من المحال أن يلغي التقويضيون النص لأن النص بالنسبة إليهم هو كل ما بقي بعد أن قضى المؤلف نحبه وبعد أن سقط المعنى المتعالي والتيمة الخارجة على النص. ولدي من النصوص التي اقتبستها في المقابلة ما يبرر ما ذهبت إليه.

لكن علي حرب، كدأبه دائما، لا يُعنى بما يقال وإنما يبحث ليس فقط عن ما لم يقله الكاتب بل وأيضا عن ما لم يخطر له على بال. وهكذا فهو يدينك ليس بما قلت أو قصدت وإنما بما لم تقل ولم يخطر لك ولم تقصد إليه. وكان تعليقي على مثل هذا «الحشر» أن الأمريكي وودي آلن لم يصل إلى هذه المرحلة بعد، لكن غوار الطوشة قد تجاوزها. كما قلت أن مقولة البحث عن المكبوت أو المسكوت عنه مقولة تفكيكية صحيحة لكنها لا تأتي مصادرة وإنما تأتي نتيجة البحث في النص ذاته الذي ألغاه علي حرب، وتأتي كأثر في النص ذاته ولا تسقط عليه من الخارج كما فعل علي حرب مع العظم ومع غيره. وقلت أن النص نفسه يفضي إلى ما يخفيه وليس الناقد هو المؤهل لذلك بعيونه الثاقبه كما يحسب الأمر علي حرب. ولا يمكن لعلي حرب أن يعي هذه الحقيقية ما لم يكن على وعي تام بالطرح الألسني السوسيري والياكبسوني ونظرية اللغة المعاصرة. هذا ما قلته ولم أقل أن علي حرب نسخ فكر دريدا أو فوكو، ولو فعل ذلك لكان قد أجاد حقا، لكنه نسخه بالمعنى الذي يذهب إليه حين شرح معناه. غير أن للنسخ معان كثيرة منها الإلغاء تماما: معنى وصورة وحكما، وهذا ما فعله علي حرب مع التفكيكية. هذا هو ما قلته وكيف اقتصر علي حرب على هذا المعنى

وحده دون غيره. لكن علي حرب إذا قال قولا فصدقوه لأن سمات النص كما يصفها الفيلسوف الكبير تلغي الصدق والمصداقية. فالأمر هو ما يراه ، إذ يقول في رده: «لا مجال للكلام على تمرس مغلوط أو فهم خاطئ»، ولو التزم علي حرب بهذه المقولة التي يدافع بها عن نفسه، لكان الحق معه: لكن غيره هم الذين يخطئون ولا يفقهون، أما هو فلا، لأن لا مجال للكلام على تمرس مغلوط أو فهم خاطئ!

هذه هي نتيجة تضخم الذات وتعاليها على غيرها. وهنا يأتي النص ليبرر صدق علي حرب ويكشف تهافت غيره. يقول علي حرب معرفا النص: «النص لا ينص بطبيعته على المراد»، ويقول أيضا «إن النص بحكم تكوينه لا ينص على المراد ولا يفي به. بل يفيض عنه ويحجبه ويستبعده» (1:16؛ 1:118). بل إن علي حرب يصرح في المقدمة بقوله: «ان الكلام مخادع مخاتل وان النص عمل متشابه مراوغ» (:15). وهكذا فالنص «لا يقول الحقيقة بل يخلق حقيقته، فلا ينبغي التعامل مع النصوص بما تقوله وتنص عليه أو بما تعلنه وتصرح به، بل بما تسكت عنه ولا تقوله، بما تخفيه وتستبعده» (1:15). ويعترف نصا فيقول: «فأنا لا أهتم بما ينص عليه القول بقدر ما أهتم بما لا ينص عليه» (1:276). إذا كان هذا هو وضع النص، فكيف يستطيع علي حرب أن يكشف عن المسكوت عنه؟ ما هي اللغة التي تستطيع الهيمنة على ما هو ظاهر وما هو باطن؟ لابد أن صاحب هذه اللغة قدير كبير، ولابد أن يكون فيلسوفا لا تحده حدود.

يقول علي حرب واصفا نفسه حتى يثبت أنه الوحيد الذي يرى ما لا يرى ويعي ما لم يقله المرء أو يقصده: «ولكني أجري أحيانا على السليقة و أكتب فيما أنا أتدفق وأفيض» (1:281). أما من حيث الكثرة والتمدد فهو (على عكس الذات البارتية التي تتجمع في «ضمير ورقي»)، يقول واصفا نفسه: «أنا كائن لا يستغرقني أسم أو رمز أو فكرة. فحقيقتي تستعصي على الكشف والحد. وكينونتي هي أوسع وأغنى وأعظم مما أنا عليه... فما أنا في النهاية سوى نِسَبي المختلفة التي لا تُحصى إلى سواي من الأشياء والذوات» (1:285). هذا هو علي حرب، فكيف لا يستطيع إن يدرك الأشياء كلها. وهذا الاتساع هو الذي يتيح للمفكر الكبير أن يفكر بطريقة مغايرة فينسخ كيف شاء، ويحور كيفما أراد حتى يكون جديرا بلقبة لأن: «مبرر كل مفكر جدير بلقبه أن يمارس التفكير بطريقة مغايرة للذين سبقوه ... والتفكير بصورة مغايرة، يعني أن نبدل وننسخ، أو نحرف ونحور، أو نزحزح ونقلب، أو ننقب ونكشف، أو نحفر ونفكك، أو نرمم ونطعم، أو نفسر ونؤول» (1:133).

أما قضية العرب والأوروبيين الذين يتهمون التفكيكيين فهي قضية أصيلة. يقول علي حرب في مجلة اليمامة: «ولهذا أراني أقول مرة أخرى لمن يتهمونني بالنسخ، أنهم لا يفقهون معنى ما يقولون، وهذا شأن الكثيرين، من العرب أو الأوروبيين الذين اتهموا فوكو ودريدا بنسخ الفلسفة الألمانية. وهي تهمة تصدر إما عن جهل أو عن تعصب». وهذا

الكلام هو اجترار لما سبق أن قاله في أحد كتبه إذ يقول «ان الذين ينتقدون فلاسفة التفكيك ... صنفان: صنف قد سمع بالتفكيك ولايفقه معناه. وصنف آخر يخشى أهل التفكيك وأعني به اهل العقائد واصحاب الدعوات» (2:145). وأقول بدوري: أولا لم يتهم أحد علي حرب بالنسخ وإنما هو نفسه يعترف به. ثانيا، لولا ان علي حرب من الدعاة المبشرين والفلاسفة الكبار المنقذين لاستثنيته من الصنف الثاني، ولكن لما كان المفكر رحبا فسيحا لايقبل الحد والحدود فلعل هناك فسحة كبيرة تتسع للصنفين في آن: أليس المفكر اكبر وارحب من ان يصنف بصنف واحد (1:146)؟ ثالثا، وهو الأهم، إذا كان حقا من ينتقد أهل التفكيك هو لا محالة واحد من الصنفين، فماذا تفعل بانتقاد اهل التفكيك انفسهم لبعضهم البعض، فهم أول من ابتدأ هذا التقليد: ألم ينتقد دريدا مركزية فوكو، ثم ألم يصف فوكو دريدا بأنه «بيداغوجي صغير»، إضافة إلى أن دريدا وصف لاكان بالتمركز المنطقي والذكري، كما أن بورديو وجه الاتهامات إلى دريدا بأنه لا يبالي بما هو خارج الفلسفة والنص. فالقضية ليست قضية نسخ أو تحوير واتهامات، وإنما أهل التفكيك أنفسهم انتقدوا بعضهم بعضا: فمن أي الصنفين ترى أهل التفكيك؟ أهم من أهل العقائد واصحاب الدعوات، أم هم مثل محمد اركون، لا يفقهون ما يقولون؟

ليس هذا وحسب، وإنما هناك خلط كبير حين يقول علي حرب إن المثقفين العرب «يغفلون عن كون النص هو في النهاية علاقته بقرائه». فمثل هذا المذهب وهذا الطرح لا يمت للتفكيك بصلة، وإنما هذا هو نهج الظاهراتيين أمثال جورج بوليه ومدرسة جينيف النقدية، والمقولة بذاتها مشروعة لكن الظاهراتية (خاصة في تركيزها على الذات) تتنافى تماما مع الطرح التفكيكي الذي يدعو إليه علي حرب. غير أن علي حرب يستطيع أن يخلط الأمور كيف شاء ويدعي ما يريد، فهو مفكر كبير يرى أن من حقه أن يقول ما يشاء لأن لا أحد يستطيع فهم ما يقول.

وفي الختام أقول: إذا كانت مفردة «التهويش» وحدها قد اثارت حفيظة الشيخ لكي يقول أنني قد تجاوزت حدود الأدب، وأنه كان الأحرى بي أن أقول «التهويل»، فأنا على أتم الاستعداد أن أتبنى «التهويل» بدل «التهويش». لكن من يضمن أن حرف اللام لا يتحول إلى حرف شين خاصة أن النص مرواغ مخاتل، وأن الكلام بطبعه لا ينص على المراد كما يذهب سيد الخداع؟ كانت الشين في مقولتي الأولى «لاما» في الأصل، لكن النسخ والتحوير والتحريف حولها شينا، فلا تغضب. هذه هي حال النص وتبدل أحواله ومنكم نتعلم الكياسة والأدب، لأن الأمر على ما تفضلت بقوله: «كل كلام يشهد على صاحبه»! ولعلني أذكرك بما قلت في أحد كتبك: «فأنا لا أهتم بما ينص عليه القول بقدر ما أهتم بما لا ينص عليه».